"صنع" تصاريفها في القرآن الكريم

(نظرة في التفسير)

د. رافع محمود حامد الفاخري
كلية القانون – جامعة بنغازي

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وقائد الغر المحجلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد:

فالقرآن الكريم معجزة الله الخالدة إلى البشرية جمعاء، معجز ببيانه وبلاغته، وأحكامه وتشريعاته، وبحقائقه وأخباره وقصصه وغيبياته، وبسننه الكونية وآياته البديعة في الأنفس والآفاق.

قال تعالى : "**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ".[1]

وألفاظ القرآن الكريم تعددت مراميها، وتنوعت معانيها، وتفرعت مشتقاتها، ومن هذه الألفاظ لفظة " **صنع**" ومشتقاتها التي زخرت بها آيات القرآن الكريم، وهي جديرة كغيرها من الألفاظ بالتأمل والتفكر والدراسة والتدبر، قال تعالى: " **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ".[2]

وإنه مما لا شك فيه أن كل مؤمن تشرئب نفسه إلى أن يبحث في كتاب الله عز وجل، وأن يكتشف ولو جزءًا يسيرًا من كنوزه الكامنة في سوره وآياته، لأن القرآن الكريم زاخر بالموضوعات الهامة، التي اخترت موضوعا منها بعنوان:

(صنع وتصاريفها في القرآن الكريم . دراسة تفسيرية).

ولدراسة هذا الموضوع أهمية تكمن في كونه لونا من ألوان التفسير الموضوعي، الذي يبحث في لفظة من ألفاظ القرآن الكريم ومشتقاتها.

كما تكمن أهميته أيضا في أن لفظة" **صنع**" ومشتقاتها وردت في سياق موضوعات عديدة مما يجعل البحث شاملا لمعلومات قيمة، وأخبار متنوعة، وعبر وعظات كثيرة.

---

[1]– سورة فصلت، الآية 53.

[2] – سورة النساء، الآية 82 .

ولقد اقتضت طبيعة البحث مني أن أقسمه إلى مقدمة هانحن في آخرها، ومبحثين وخاتمة، على النحو الآتي:

المبحث الأول: إضافة مادة "صنع" وتصاريفها إلى ذات الخالق جل وعلا.

المبحث الثاني: إضافة مادة " صنع" وتصاريفها إلى المخلوق.

المبحث الأول

إضافة مادة "صنع" وتصاريفها

إلى ذات الخالق جل وعلا.

المطلب الأول: "صنع"

وقد وردت هذه اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم في قوله تعالى" **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ".[3]

والقراءة في الآية لقوله تعالى "**صُنْعَ**" على النصب، ويجوز الرفع، فمن نصب فعلى معنى المصدر ؛ لأن قوله تعالى: " **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** " دليل على الصنعة، كأنه قيل صنع الله ذلك صنعا، وقد تكون دالة على الإغراء، أي اعلموا وأبصروا الذي أتقن كل شيء إنه خبير[4]. ومن قال "**صُنْعُ**" بالرفع، فالمعنى: ذلك صنع الله[5]. والناظر في الآية الكريمة يجد أن بها لطيفة، فهي من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وهو أبلغ من إضافته إلى المفعول، واللطيف في ذلك أنها أبلغ في الامتنان؛ لأنه إذا قال:" أتقن كل شيء" كان أبلغ من قوله:" أتقن خلق كل شيء"، وذلك لأنه قد يحسن الخلق وهو المحاولة ولا يكون الشئ في نفسه حسنا.

وإذا قال:" أتقن كل شيء" اقتضى أن كل شيء خلقه حسن، بمعنى أنه وضع كل شيء في موضعه.

فقوله تعالى: " **صُنْعَ اللَّهِ** "هو من باب المصدر المؤكد، إلا أن مؤكده محذوف، وهو الناصب لقوله تعالى: " **وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** " في الآية التي قبلها، والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت، أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: " **صُنْعَ اللَّهِ** " يريد به

---

[3]– سورة النمل، الآية 88.

[4]– الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث، بيروت ط1، سنة 2002م، ج7، ص229.

[5]– معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، سنة1408هـ ،1988م، ج4، ص130.

الإثابة والمعاقبة، وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، أي أن مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب، من جملة إتقانه للأشياء.. فانظر يا رعاك الله إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره، وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحدا[6]، ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق[7].

شبهة والرد عليها:

بينا آنفا لطافة قوله تعالى : " **صُنْعَ اللَّهِ** "، غير أن بعض من لا يلتفت إلى قوله قد يشغب علينا بقوله: كيف يكون الكفر حسنا وهو قبيح؛ لأنه شتم لرب العالمين، ولا يجوز أن يقال: الله خلق شتم نفسه وأحسن شتم نفسه، أو أحسن كفر الكافر، وغير ذلك من الخرافات!!!.

لمثل هؤلاء نقول وبالله التوفيق:

لا يقول عاقل: أن الله تعالى خلق الكفر وأحسنه، أو أحسن شتم نفسه على هذا الإطلاق، ومن قال ذلك فهو كافر.

ولكن يقال: فعل الكفر من الكافر قبيحا، وفعل المعصية من العاصي قبيحًا، لكنه من حيث خلقه ذلك وجعله حجة عليه حسنًا متقنًا محكمًا، وإن كان ذلك الفعل من الكافر قبيحًا باطلاً سفهًا جورًا.

ألا ترى أن من تكلف أن يعرف فعل الكفر منه سفهًا وجورًا كان غير مذموم؛ لأنه يتكلف أن يعرف ما هو سفه في الحقيقة، ويعرف ما هو حق حقا، فهو من هذا الوجه عارف بحق وحكمة؛ لأن الحكمة توجب أن يعرف كل شيء على ما هو في نفسه حقيقة، فعلى ذلك خلق الكفر من الكافر على الوجه الذي ذكرنا هو حسن متقن محكم، وإن كان من حيث فعل الكافر قبيحًا سفهًا باطلاً[8].

ولقد أنصف بعض المعتزلة عندما قال: أن في قوله تعالى" **صُنْعَ اللَّهِ** " دلالة على أن القبائح ليست من خلقه، وإلا وجب وصفها بأنها متقنة وإن الإجماع مانع منه[9].

والتحقيق في المسألة: أن الإتقان لا يحصل إلا في المركبات، فيمتنع وصف الأعراض به. وأصل هذه الشبهة هو ما حدث من جدال ونزال وسجال في مسألة خلق الأفعال[10].

---

[6]– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، سنة1407هـ، ج3، ص387.

[7]– أصل الشقاشق: من شقشقة الفحل إذا هدر، وإذا قيل للخطيب: ذو شقشقة فإنما يشبه بالفحل.

[8]– تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، تحقيق د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، سنة1426هـ . 2005م، ج8، ص142.

[9]– مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة، سنة 1420هـ، ج24، ص574.

المطلب الثاني:" لتصنع"

وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في موضع واحد هو قوله تعالى: " أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي "[11].

جاء في تفسير مقاتل[12]:" وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي " حين قذف في التابوت في البحر، وحين التقط، حين غذي، فكل ذلك بعين الله.

ولقد اتبع مقاتل قي تفسيره طريقة السلف عند حديثه عن الآية الكريمة، فعدها من المتشابه الذي نؤمن به كما ورد، ونفوض المراد منه إلى الله عز وجل.

والجدير بالذكر أن أهل التفسير قد اختلفوا في بيان معنى العين الوارد في الآية وهي مضافة إلى الله تعالى.

فابن جريج يفسرها بمعنى ولتعمل على عيني، وأبو عبيدة يجعله مجازا فيفسرها" ولتغذى وتربى على ما أريد وأحب، يقال: اتخذه لي على عيني، أي على ما أردت وهويت.[13]

ويفسرها ابن قتيبة بقوله:" ولتربى بمرأى مني، وعلى محبتي فيك"[14]. أما الطبري فيفسر كلمة العين في مواضع كثيرة من تفسيره بمعنى" مرأى منَا أي: ونحفظك ونحيط بك"[15].

ولفظ العين مما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن الكريم بحسب الاستعمال والتركيب؛ وذلك لأنه من قبيل المشترك اللفظي الذي يدل على معان عدة.

غير أن لفظة " **عَيْنِي** " في الآية الكريمة تجرنا للحديث عن مسألة عقدية زلت فيها الأقدام، وضلت فيها الإفهام، وهي مسألة آيات الصفات أو ما يسمى بمتشابه الصفات. فنقول وبالله التوفيق:

---

[10]– رسالة بعنوان" جعلية آثار العقد في الفقه الإسلامي" عرضت فيها للمسألة، فليراجعها مبتغي الزيادة.

[11] –سورة طه، الآية 39.

[12] –تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان الأزدي، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط الأولى، سنة1423هـ، ج5، ص93.

[13] –مجاز القرآن، معمر بن المثنى التيمي أبو عبيدة، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، سنة1381هـ، ج2، ص162.

[14]– تأويل غريب القرآن، محمد بن عبدالله بن مسلم أبو قتيبة، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ط سنة 1978م، ص 278.

[15] –جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبدالله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والتوزيع، ط1، سنة 2001م، ج 18، ص7، ج 16، ص162، ج 27، ص37.

إن المراد من آيات الصفات هي الآيات المشكلة التي وردت في شأن الله عز وجل، وقد اتفق علماء المسلمين بشأنها على أمور ثلاثة، ثم اختلفوا فيما وراءها:

فأول ما اتفقوا عليه: هو صرفها عن ظواهرها المستحيلة، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع قطعا.

وثانيه: أنه إذا توقف الدفاع عن الإسلام على التأويل لهذه المتشابهات، وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين، ويرد طعن الطاعنين.

وثالثه: أن المتشابه إن كان له تأويل واحد يفهم منع فهما قريبا وجب القول به اجماعًا؛ وذلك كقوله تعالى" وهو معكم أينما كنتم"، فإن الكينونة بالذات مع الخلق مستحيلة قطعا، وليس لها بعد ذلك إلا تأويل واحد، هو الكينونة معهم بالإحاطة علمًا، وسمعًا، وبصرًا، وقدرة، وإرادة[16].

أما اختلاف العلماء حول المتشابه فقد وقع على ثلاثة مذاهب[17]:

الأول: وهو مذهب السلف، ويسمى مذهب المفوضة . بكسر الواو. وهو تفويض معرفة معاني هذه المتشابهات إلى علم الله وحده، بعد صرفها عن ظواهرها المستحيلة.

والمذهب الثاني: مذهب الخلف، ويسمى مذهب المؤولة . بتشديد الواو وكسرها.، وقد انقسموا على أنفسهم فريقين:.

فريق يؤولها بصفات سمعية غير معلومة على التعيين ثابتة له تعالى زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعيين، وينسب هذا إلى أبي الحسن الأشعري[18]؛ وفريق يؤولها بصفات أو بمعان نعلمها على التعيين، فيحمل اللفظ الذي استحال ظاهره من هذه المتشابهات على معنى يسوغ لغة، ويليق بالله عقلاً وشرعًا، وينسب هذا الرأي إلى ابن برهان[19] وجماعة من المتأخرين.

والمذهب الثالث: مذهب المتوسطين، وقد نقل السيوطي هذا المذهب فقال:" وتوسط ابن دقيق العيد فقال: إذا كان التأويل قريبًا من لسان العرب لم ينكر، أو بعيدًا توقفنا عنه، وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه؛ وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرًا مفهومًا من

16– مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج2، ص286.

17– تفسير مقاتل بن سليمان، مرجع سابق، ج5، ص189 وما بعدها.

18– هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر يرجع نسبه إلى أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ، وهو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، عاش ببغداد وبها مات، انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، ص284.

19– هو أبو الفتح أحمد بن علي بن برهان الشافعي، كان يضرب به المثل في حل الإشكال، توفي سنة 520هـ، انظر وفيات الأعيان، مرجع سابق، ج1، ص29.

تخاطب العرب قلنا به من غير توقف، كما في قوله تعالى:(**يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله)**، فنحمله على حق الله وما يجب له[20]".

ومنشأ الخلاف بين السلف والخلف مرده إلى التساؤل التالي: هل يجوز أن يكون في القرآن شيء لا يعلم معناه؟. فعند المفوضة يجوز، ولهذا منعوا التأويل، واعتقدوا التنزيه على ما يعلمه الله؛ وعند المؤولة لا يجوز ذلك بل الراسخون في العلم يعلمونه.[21]

وقد ذهب مقاتل إلى القول بأنه لا متشابه في القرآن تمتنع معرفته إلا أخبار الغيب، كصفة الآخرة وأحوالها، ومنهجه في ذلك موافق لرأي ابن قتيبة في أن الله لم ينزل شيئا من القرآن إلا لينتفع به عباده، ويدل به على معنى أراده[22].

ويدعم ابن قتيبة رأيه فيقول:" وهل يجوز لأحد أن يقول أن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟، وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى:" **وما يعلم تأويله إلا الله**"، جاز أن يعلمه الربانيون من صحابته، فقد علَم عليا التفسير، ودعا لابن عباس فقال: اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين؛ وبعد فإنا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمروه كله على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور[23]".

ونكتفي في هذا الموضوع الشائك بهذا القدر.

المطلب الثالث:" اصطنعتك"

وهذا الاشتقاق ورد في القرآن الكريم في موضع واحد، هو قوله تعالى : " **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** "[24]، أي أخلصتك واصطفيتك، افتعال من الصنع، فأبدلت التاء طاء لأجل حرف الاستعلاء وهذا مجاز عن قرب منزلته ودنوه من ربه؛ لأن أحدا لا يصطنع إلا من يختاره[25].

وقال ابن عباس . رضي الله عنهما. في معنى الآية:" أي اصطفيتك لوحيي ورسالتي، وقيل بمعنى خلقتك مأخوذ من الصنعة، وقيل: قويتك"[26].

[20]– الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط سنة 1974م، ج3، ص16.

[21]– البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، سنة 1957م، ج2، ص79. 80.

[22]– تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، مرجع سابق، ص72.

[23]– المرجع السابق، ص73.

[24]– سورة طه، الآية 41.

[25]– الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج8، ص40.

والاصطناع: افتعال من الصنع بالضم، وهو مصدر قولك صنع إليه معروفا، واصطناع فلان: اتخاذه صنيعا محسنا إليه بتقريبه وتخصيصه بالتكريم والإجلال. قال القفال الشاشي[27]:"اصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلانا إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه، فيقال: هذا صنيع فلان كما يقال: هذا جريح فلان، وفي القاموس: واصطنعتك لنفسي أي اخترتك لخاصة أمر استكفيكه"[28].

وحقيقة الاصطفاء هو جعل موسى عليه السلام مرآة قابلة لأنوار صفات الجمال والجلال، وفيه إشارة إلى أن الخواص إنما خلقوا لأجل هذا المعنى الخاص، وأما غيرهم فبعضهم للدنيا وبعضهم للآخرة؛ فالخواص هم عباد الله حقا ، وقد تخلصوا من شوب الميل إلى الباطل وهو ما سوى الله[29]. وفي الحديث" إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه[30]"؛ فالصبر تجرع المرارات عند نزول المصيبات، والرضى سرور القلب بمرِ القضايا، فالعبد الذي أراد الله اصطفاءه يجعله في بوتقة البلاء أولا فيخلص جوهره مما سواه، فطريق هذا المنزل صعب جدًا، وهذا ما حدث مع موسى عليه السلام مصداقًا لقوله تعالى :"وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا"[31].

والملاحظ في قوله تعالى: " **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** " أن الله عز وجل أضاف الاصطناع لنفسه، وفي هذا دليل على إثبات صفة النفس لله ﷻ، فهي صفة خبرية لا مدخل للعقل فيها. والدليل على ثبوتها آي القرآن الكريم ونصوص السنة الشريفة، فمن القرآن قوله تعالى:" **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** "[32]، وقوله أيضًا: " **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** "[33].

---

[26]– الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، إبراهيم اطفيس، دار الكتب المصرية، ج11، ص189.

[27]– محمد بن علي بن إسماعيل العلامة الفقيه الأصولي اللغوي عالم خراسان، توفي في آخر سنة خمس وستين وثلاث مائة بالشاش، انظر سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، ط3، سنة 1985م، ج16، ص284.

[28]– القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط8، سنة2005م، ص739.

[29]– روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي، دار الفكر، بيروت، ج5، ص386.

[30]– قال العراقي: رواه الطبراني بلفظ آخر وسنده ضعيف، انظر المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في علوم الإحياء من الأخبار، بهامش الإحياء، عبدالرحيم بن الحسين العراقي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، سنة2005م، ص1649.

[31]– سورة طه، الآية 40.

[32]– سورة المائدة، الآية 116.

[33]– سورة الأنعام، الآية 54.

ومن السنة ما جاء في الحديث القدسي:" أنا مع عبدي حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي"[34].

وبالتالي فلا مجال للشك في إثبات هذه الصفة لله جل في عليائه، فهي صفة جلال وكمال لا تماثل نفس المخلوق، مع الاشتراك في الاسم؛ لأنه لا يلزم من الاشتراك في الاسم التساوي في المسمى[35].

شبهة والرد عليها:

ذهب بعض أهل البدع والضلالات من الجهمية إلى نفي صفة النفس عن الله عز وجل، بالتعطيل تارة والتشبيه أخرى، ولم يفروا إلى التعطيل إلا لأنهم شبهوا نفس الخالق بنفس المخلوق، وقالوا: النفس ليست صفة لله جل وعلا، بل إضافتها إليه كما في الآيتين السابقتين إنما هو من قبيل إضافة المخلوق إلى الخالق، كقوله تعالى:" **نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا** "[36].

وللرد على هذه الشبهة نقول:

المضاف إلى الله عز وجل نوعان: إما أعيان قائمة بذاتها، وإما معان. فالأعيان إذا أضيفت إلى الله تكون من باب إضافة المخلوق إلى الخالق وذلك يقتضي التشريف، كقوله تعالى:" **نَاقَةَ اللَّهِ** "، أي ناقة خلقها الله لتكون معجزة.

أما المعاني إن أضيفت إلى الله عز وجل فهي من باب إضافة صفة إلى موصوف، كما في قوله تعالى: " **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** "[37]، فالعزة هنا ليست عينا قائمة، وإنما هي صفة معنى.

إذن الإضافة لله إضافتان: أعيان إضافتها تفيد التشريف، ومعان هي من باب إضافة صفة للموصوف.

كما أننا نهدم هذه الشبهة بمعاول ثلاثة:

الأول: أن في نفي صفة النفس عن الله عز وجل ردًا لمعلوم من الدين بالضرورة، وهو ما جاءت به نصوص القرآن الصريحة.

الثاني: أن إجماع المسلمين منعقد على ثبوت صفة النفس لله عز وجل، ومن خرم الإجماع فليس في قوله حجة.

---

[34]– مسند أحمد، أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، سنة1421هـ، ج12، ص385.

[35]– شرح كتاب التوحيد لابن خزيمة، محمد حسن عبد الغفار، دروس ألقيت، بدون طبعة ولا ناشر، الدرس الرابع، ص7.

[36]– سورة الشمس، الآية 13.

[37]– سورة الصافات، الآية 180.

الثالث: أن القول بأن صفة النفس أضيفت إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى الخالق يلزم منه لازم باطل، ومعلوم أن بطلان اللازم يستتبع بطلان ملزومه. وإيضاح ذلك بأن نقول:

أن الله جل وعلا اصطنع موسى عليه السلام، وخلقه ليؤدي رسالته، ليعبد الناس ربهم ويوحدوه توحيدا تاما خالصا من كل شرك، فإذا قلنا بأن قوله تعالى:" **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** " من باب إضافة المخلوق إلى الخالق، فإن المعنى سيكون: اصطنعتك لغيري، أي أن موسى يجعل الناس يعبدون غير الله، وهذا لازم باطل وكفر مبين نفاه الله عن أنبيائه في قوله :" **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ** "[38]. إلى هنا نكتفي بهذا القدر، عصمنا الله وإياكم من الزلل والعناد.

المبحث الثاني

إضافة مادة" صنع" وتصاريفها إلى المخلوق.

المطلب الأول: إضافتها إلى المخلوق على تصاريف الأسماء

أولا:" صنعا" وهذا اللفظ ورد في القرآن الكريم في موضع واحد، هو قوله تعالى:"**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** "[39]، وفي هذه الآية الكريمة يقول الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الذين يبغون عنتك ويجادلونك بالباطل، ويحاورونك بالمسائل، قل لهم هل أخبركم عمن أتعبوا أنفسهم في عمل يبغون به ربحا وفضلا، فنالوا به عطبًا وهلاكًا، ولم يدركوا طلبًا، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وربحًا، فخاب رجاؤه وخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله[40].

وقد اختلف أهل التفسير فيمن نزلت الآية بحقه، وعد البعض سبعة أقوال في المسألة[41]:

الأول: هم القسيسون والرهبان، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الثاني: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قاله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الثالث: هم أهل حروراء من الخوارج، وهو مروي عن علي بن أبي طالب.

الرابع: هم أهل الأهواء قاطبة.

الخامس: هم كل من يصنع معروفًا ويمن عليه.

---

[38]– سورة آل عمران، من الآية79.

[39]– سورة الكهف، الآية 104.

[40]– تفسير الطبري، مرجع سابق، ج15، ص423.

[41]– النكت والعيون، علي بن محمد بن محمد الماوردي، تحقيق السيد عبدالمقصود عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ص347.

السادس: هم المنافقون بأعمالهم، المخالفون باعتقادهم.

السابع: هم طالبوا الدنيا وتاركوا الآخرة.

والصواب أن يقال: أن الآية عامة في كل عامل عملا يحسبه فيه مصيب، وأنه لله بفعله مطيع مرض، غير أنه بفعله لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان متنكب، كالرهابنة والشمامسة وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم.

وقوله تعالى:" **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** " هو من أدل الدلائل على خطأ قول من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته؛ وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين بين صفتهم في هذه الآية أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب هباء، وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم. ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يعلم، لوجب أن يكون هؤلاء القوم على عملهم هذا مثابين مأجورين[42].

واللافت أن في الآية الكريمة آنفة الذكر لطيفة: وهي أن القوم الذين ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، لهم من الأعمال ما هو حسن في نفسه من صلة للرحم، وإطعام للفقراء، وعتق للرقاب، ونحوها، علاوة على ما وقع في حسبانهم أنه حسن، حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها[43]، ومع ذلك فإن الله قد أبطل الأجر والمثوبة على كليهما، وفي هذا دليل على أن الحسن والقبح عند التحقيق شرعيان، والله المستعان وعليه التكلان.

ثانيا:"صنعة"، ولقد وردت هذه اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم، في قوله تعالى:

" **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ** "[44].

والصنع إجادة الفعل، فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعا، والصناعة ككتابة حرفة الصانع وعمل الصنعة. واللبوس في الأصل اللباس درعا كان أو غيرها[45]. ولبس الثوب استتر به. وقد كانت الدروع قبل داود عليه السلام صفائح أي قطع حديد عراضا فحلقها وسردها. وذلك أنه عليه السلام خرج يوما متنكرا ليسأل عن سيرته في مملكته، فاستقبله جبريل عليه السلام على صورة آدمي فلم يعرفه داود، فقال: كيف ترى سيرة داود في مملكته؟ فقال له جبريل: نعم الرجل هو، لولا أن فيه خصلة واحدة. قال: وما هي؟، قال: بلغني أنه يأكل من بيت المال، وليس شيء أفضل من أن يأكل الرجل من كد يده، فرجع داود عليه السلام وسأل الله أن يجعل رزقه من كد

---

[42]– تفسير الطبري، مرجع سابق، ج15،ص428. 429.

[43]– روح البيان، مرجع سابق، ج5، ص304.

[44]– سورة الأنبياء، الآية 80.

[45]– إصلاح المنطق، يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت، تحقيق محمد مرعي، دار إحياء التراث العربي، ط1، سنة2002م، ص236.

يده، فألان له الحديد، وكان يتخذ منها دروعا فيبيعها. فذلك قوله:" **وَعَلَّمْنَاهُ** " يعني: ألهمناه، ويقال: علمناه بالوحي صنعة اللبوس[46].

والمعجز في الأمر أن داود عليه السلام أعطي فعل ذلك كله من غير استعانة بأداة أو آلة، من نحو الكير، والنار، والسندان، والمطرقة. ويحكى أن لقمان كان جالسا عند داود ويرى ما يصنع فهم أن يسأله؛ لأنه لم ير الدروع قبل ذلك فسكت، فلما فرغ داود من صناعة الدرع قام وأفرغه على نفسه وقال: نعم الرداء هذا للحرب، فقال لقمان عندها: إن من الصمت لحكمة[47].

وقوله تعالى في الآية الكريمة:" لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ" أي ليحرزكم من حربكم، أو من السلاح أي من آلة بأسكم. وقرأ البعض لتحصنكم بالتاء ردا على الصنعة، وقيل: على اللبوس والمنعة التي هي الدروع. وقرأ البعض الآخر لنحصنكم بالنون لقوله:" وعلمناه"، وقرأ الباقون بالياء جعلوا الفعل للبوس.

وفي الآية الكريمة لطيفة وهي أنها أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا كما قال الجهال: بأن ذلك إنما شرع للضعفاء؛ فالسبب سنة الله في خلقه، فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة، ونسب داود عليه السلام إلى الضعف وعدم المنة[48].

ثالثا:" مصانع"، وهذا اللفظ ورد في القرآن الكريم في موضع واحد هو قوله تعالى: " **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**"[49]. والآية نزلت في عاد قوم هود عليه السلام، إذ أنهم لما طال عليهم الأمد، وتفننوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذات واشتد الغرور بأنفسهم، فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة، ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرياسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفوا بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين، فأرسل الله إليهم هودا ففاتحهم بالتوبيخ على ما فتنوا بالإعجاب به، وبذمه إذ ألهاهم التنافس فيه عن معرفة الله، فنبذوا اتباع الشرائع وكذبوا الرسل. فمن سابق أعمالهم أنهم كانوا قد بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق، كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين؛ واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه، وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون، وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا قصورا وحصونا على أشراف الأرض، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها؛ لأن فيها حفظ للناس من الهلاك في الفيافي بضلال الطريق، ومن الهلكة

---

[46]– بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، بدون ناشر ولا طبعة، ج2، ص435.

[47]– روح البيان، مرجع سابق، ج5، ص508.

[48]– الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج11، ص321.

[49]– سورة الشعراء، الآية 129.

عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله بنفع عبيده كانت جديرة بالثناء عاجلا، والثواب آجلا.

أما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة، وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله، انقلبت عظمة دنيوية محضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع، ولا تحث الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها، وقصاراها التمدح بما أوجدوه منها.

والأعمال إذا خلت عن مراعاة المقاصد التي ترضي الله تعالى، اختلفت مشارب عامليها طرائق قددا على اختلاف الهمم واجتلاب المصالح الخاصة، فلذلك أنكرها عليهم رسولهم بالاستفهام الإنكاري على سنة المواعظ، فإنها تبنى على ما في الأعمال من الضر الراجح على النفع المرجوح.

ومقام الموعظة أوسع من مقام تغيير المنكر، فموعظة هود عليه السلام متوجهة إلى ما في نفوسهم من الأدواء الروحية، وليس في موعظته أمر بتغيير ما اتخذوه من المصانع.

ولما كان فعلهم شاغلا لهم عن المقصد النافع للحياة في الآخرة، أنكر عليهم.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تعيين المصانع[50]، وفي بعض ما قالوه ما الأصل فيه الإباحة، وفي بعضه ما هو صلاح ونفع.

والمصانع جمع مصنعة وأصله مفعل، مشتق من "**صنع**" فهو مصدر ميمي وصف به للمبالغة، فقيل: هو الجابية المحفورة في الأرض، وروي عن قتادة: مبنية بالجير يخزن بها الماء، ويسمى صهريجا. وقيل: قصور وهو عن مجاهد.

وقيل إن المصانع قصور عظيمة اتخذوها، فيكون الإنكار عليهم متوجها إلى الإسراف في الإنفاق على أبنية راسخة كأنها تمنعهم من الموت، فيكون الكلام مسوقا مساق الموعظة من التوغل في الترف والتعاظم.

هذا ما استخلصناه من كلمات انتثرت في أقوال عن المفسرين، وهي تدل على حيرة من خلال كلامهم في توجيه إنكار هود عليه السلام على قومه عملا كان معدودا في النافع من أعمال الأمم، وأحسب أن قد أزلنا تلك الحيرة[51].

---

[50]– تفسير الطبري، مرجع سابق، ج17، ص610. وأيضا تفسير الماوردي، مرجع سابق،ج4، ص181.

[51]– التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط سنة 1984م. ج19، ص168.

المطلب الثاني: إضافتها إلى المخلوق على تصاريف الأفعال[52]

أولا: صيغة الماضي

ولقد وردت مادة" صنع" بصيغة الماضي في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، كلها وردت بصيغة الجمع. وهي قوله تعالى: **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**""[53]، وقوله: "**وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ**"[54]، وقوله تعالى:" **تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ** "[55].

والجدير بالذكر أن مادة "**صنع**" إذا أطلقت أفادت إجادة الفعل، وهي لا تنسب إلى الحيوانات ولا الجمادات، كما لا ينسب إليها الفعل[56]، غير أن الملاحظ على الآيات الثلاثة آنفة الذكر أن الفعل" صنعوا" منسوب إلى من لم يكن على الإسلام. وفي ذلك دلالة على أن حسن العمل وإتقانه من قبل القائم به لا يعني البتة صلاحه وترتيب الأجر والمثوبة عليه، ولعل هذا من أدل الدلائل على أن الحسن والقبح مردهما إلى الشرع لا الحس كما يذهب البعض.

وقد يقول قائل لماذا عبر الله عز وجل في آية سورة هود آنفة الذكر بقوله" حبط" عندما ذكر" صنعوا"، وعبر بـ" باطل" عندما ذكر" ما يعملون"؟، أي لماذا أحبط الصنع ولم يبطله، وأبطل العمل ولم يحبطه؟.

نقول وبالله التوفيق: إن في الآية الكريمة لطيفة: وهي أن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها، وبيان ذلك:

إن الآية واردة في الكفار؛ لأن السياق يدل على ذلك وهو قوله تعالى" **لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ** "، ومعلوم أن المكث في النار لا يستقيم على الإطلاق إلا في شأن الكفار.

ولما كان المشاهد من حال الكفار أن أعمالهم في الدنيا كثير منها ما يكون متقنا مجادا، كما في أعمالهم التي تكون في صورتها حسنة نافعة مثمرة، غير أنها لم تأت على وفق مقصود الشرع من الخلق؛ لذلك قضى الله الحكيم بحبوطها مع وصفه لها بـ" صنعوا" أي المتقن المجاد من الأعمال.

52– سنكتفي بصيغتي الماضي والمضارع، أما صيغة الأمر فلم ترد إلا في موضعين سيغني عن ذكرهما ما سيأتي في الموضع الثامن من صيغة المضارع إن شاء الله تعالى.

53– سورة هود، الآية 16.

54– سورة الرعد، الآية31.

55– سورة طه، الآية 69.

56– الموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، مؤسسة سجل العرب، ج6، ص323.

والحبوط هو زوال الأثر مع بقاء الصور، ولذلك قيل إنسان محبط أي موجود الصورة غير مثمر العمل؛ فيكون المعنى: ليس لهم في الآخرة إلا النار لحبوط أعمالهم، وعدم ترتب الثواب عليها لبطلانها وكونها ليس على ما ينبغي.

فإن قيل: إن حبوط ما صنعوا وبطلان ما عملوا يقتضي ألا ينتفعوا به لا أن يكون لهم النار، فكيف تصح العلية؟.

قلنا: إذا بطل عمل الجوارح لم يبق لهم إلا الأوزار على النوايا السيئة، فلهم النار في مقابلتها[57].

واللطيف أيضا أن قوله تعالى" **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا** " يشير من طرف خفي إلى عدله وعدم ظلمه؛ لأنهم لما كانت لهم أعمال حسنة وصفها لهم بالصنعة، وبالتالي عجل لهم الجزاء عليها في الدنيا من الخير والنعيم، وانبساطها عليهم كما هو مشاهد. ونظير ذلك قوله تعالى:" **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا** "[58] .

ثانيا: صيغة المضارع، ولقد وردت مادة "**صنع**" بصيغة الفعل المضارع في القرآن الكريم في ثمانية مواضع، ستة منها بصيغة الجمع، واثنتان على الإفراد، نذكرها تباعا:

1–قوله تعالى:" **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**"[59]، أي أن الله عز وجل يعلم ما يصنع الناس من خير وشر، وهو مجازيهم كفاء أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، كما جرت بذلك سنته في خلقه وهو الحكيم الخبير، ولا يخفى ما في ذلك من وعد ووعيد وحث على مراقبة الله في السر والعلن[60].

2–قوله تعالى:" **وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** "[61]، وفي هذه الآية يقول الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: اعف عن هؤلاء الذين هموا ببسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، واصفح فإن الله من وراء الانتقام منهم، وسينبئهم عند ورودهم عليه في معادهم بما كانوا في الدنيا يصنعون من نقضهم ميثاقه ونكثهم عهده، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم أمره ونهيه، فيعاقبهم على ذلك حسب استحقاقهم[62].

57– حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي، أحمد بن محمد بن عمر الحنفي، دار صادر، بيروت، ج5، ص82.

58– سورة الأحقاف، الآية 20.

59– سورة العنكبوت، الآية 45.

60– تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، سنة1365هـ، ج20، ص146.

61– سورة المائدة، الآية 14.

62– جامع البيان، الطبري، مرجع سابق،ج8، ص261.

3-قوله تعالى:" **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** "[63]، وهذا قسم منه ﷺ على أنه: لبئس الصنيع يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار في تركهم نهي الذين يسارعون منهم في الإثم والعدوان وأكل السحت[64]. وفي الآية إشارة إلى ضرورة أن ينهى أهل العلم من هم دونهم عن مقارفة الفواحش والآثام، إذ ليس في القرآن الكريم آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها، ليعلموا أن العامل بالإثم والمعصية والراضي به والتارك النهي عن ذلك سواء[65].

4-قوله تعالى:" **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** "[66]، أي أن الله عز وجل أذاق القوم المذكورين في الآية ما أذاقه لهم بسبب ما كانوا يصنعون من الكفر بأنعم الله وبجحود آياته، وتكذيب رسله، وقال: بما كانوا يصنعون، وقد جرى الكلام من ابتداء الآية إلى هذا الموضع على وجه الخبر عن القرية؛ لأن الخبر وإن كان جرى في الكلام عن القرية استغناء بذكرها عن ذكر أهلها لمعرفة السامعين بالمراد منه، فإن المراد أهلها، ولذلك قيل: بما كانوا يصنعون، فرد الخبر إلى أهل القرية[67].

وقوله تعالى:" **بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** " يدل على أن صنيعهم الذي قاموا به من الكفر بأنعم الله، رغم إتقانهم له وتجويدهم إياه إلا أنه مذموم قبيح ليس بحسن في ميزان الشرع. و الآية دليل من الأدلة الدامغة على أن الكفر كفران، أكبر مخرج من الملة، وأصغر لا يخرج منها غير أنه موجب للعذاب الشديد الأليم.

وكفر النعمة بمعنى نسبتها إلى غير الله جل وعلا، يوجب ما ذكرناه من العذاب الأليم[68]، ونظير ذلك كثير في آي القرآن المجيد، ونصوص السنة الشريفة.

والآية آنفة الذكر قد وردت في باب ضرب الأمثال للناس، فهي وإن كان يراد بها بيان صورة قائمة لذلك المجتمع المكي الذي ساند بعضه بعضا على الباطل، ووقف ضد نور الله يحاول أن يطفئه فكانت يد الله الغالبة، وجاء الحق وزهق الباطل، وتكسرت الأصنام وحطمت تلك المعبودات يوم فتح مكة، كما تحطمت معها أنصارها وأعوانها من مفسدين وظالمين؛ فهي أيضا صورة لكل من سار على درب الضلال في كل حين، ضلال الكفر والاعتقاد، وضلال العمل، والفسوق والعصيان، فالمصير هو المصير، والقانون الإلهي يجري على الناس جميعا لا يتخلف، فما دام هناك كفر وعصيان وابتعاد عن الحق وأهله، كانت هناك نقم من الله من جوع وخوف

[63]- سورة المائدة، الآية 63.

[64]- جامع البيان، مرجع سابق،ج10، ص448.

[65]- تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتوريدي، مرجع سابق، ج3، ص550.

[66]- سورة النحل، الآية 112.

[67]- تفسير الطبري، مرجع سابق، ج17، ص311.

[68]- المفيد في مهمات التوحيد، د. عبدالقادر بن محمد عطا صوفي، دار الإعلام، ط1،سنة1422هـ، ص185.

يسيطر على الأفئدة، فتحرم نعمة الأمان، وتتبدد القوى المادية والمعنوية التي هي عماد الحياة الحقيقية، وذلك كله جراء تلك الأعمال السيئة التي اقترفتها الأيدي، والنوايا الخبيثة التي أضمرتها القلوب[69].

5-قوله تعالى:" **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** "[70]. اعلم أنه تعالى خاطب في هذه الآية المؤمنين، وإنما خصهم بذلك لأن غيرهم لا يلزمه غض البصر ولا حفظ الفرج عما لا يحل له؛ لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام، والمؤمنون مأمورون بها ابتداء، وغيرهم مأمورون قبلها بما تصير به هذه الأحكام تابعة له، وإن كان حالهم كحال المؤمنين في استحقاق العقاب على تركها، لكن المؤمن يتمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة، وغيره لا يتمكن إلا بتقديم مقدمة من قبله، وذلك لا يلزم من لزوم التكليف بها[71].

وقوله تعالى:" **خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** " فيه إشارة إلى كمال علم الله عز وجل؛ لأن قوله خبير فيه زيادة بيان على علمه بكل الأحوال الظاهرة، وما يكون وراءها من مقاصد خفية لا تظهر للناظر من مجرد السلوك، غير أنها لا تخفى على علام الغيوب.

6-قوله تعالى:" **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**"[72]. وقد ذكر الله عز وجل في الآيات الكريمات السابقة لهذه الآية من ذات السورة فريقين: كفار ومسلمون، ثم قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: أن من زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين، فكأن الرسول قال: لا. فقال: فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح، حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه، فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهي، ويعتنق طاعة الهوى، حتى يرى القبيح حسنا والعكس[73].

---

[69]- عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، على أحمد عبدالعال الطهطاوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، سنة2004م، ص259.

[70]- سورة النور، الآية 30.

[71]- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، سنة1420هـ، ج23، ص360.

[72]- سورة فاطر، الآية 8.

[73]- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج3، ص599. 600.

وليس في الآية الكريمة دلالة على الجبر على قول بعض أهل الهوى والضلال، بل هي عمدة في بيان الاختيار الذي هو لازم لحمل الأمانة التي هي التكليف، حتى يستقيم عدل الله عز وجل في الإثابة على الخير بالخير، وعلى خلافه بخلافه.

وقوله:" **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** " يمكن أن يخرج على وجهين:

الأول: أن الله تعالى على علم بصنيعهم، فهو الذي أنشأهم لا عن جهل بما يكون منهم.

الثاني: أنه خطاب لنبيه عليه الصلاة والسلام حتى لا يكافئهم ولا ينشغل بشئ مما يكون منهم، ولكن يفوض ذلك إلى الله ويسلم الأمر كله له[74].

والوجه الأول هو الراجح عندي؛ لشواهد كثيرة من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى: " **لَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** "[75]، وحديث خلق القلم[76].

7–قوله تعالى:" **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ** "[77]، فقد بين الله عز وجل أنه بقدرته وحده أورث بني إسرائيل الأرض، وأعزهم بعد ذلة، وأغناهم بعد الفقر والحرمان والفاقة التي كانت بهم، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله:" **وَأَوْرَثْنَا** "، وذلك لأن تمكين بني إسرائيل كان بعد إغراق فرعون وقومه، ولذا فإن السياق السليم يقتضي أنهم قد خلفوا في هذه الخيرات من كان قبلهم، وبالتالي فإن التعبير المعجز لا يكون إلا بما ذكره الله في أول الآية. ولعل في استخدام كلمة "أورثنا" ما يحمل كل سامع لها على التفكر والاتعاظ بما حدث لمن سبق، وهذا من أفضل أساليب الوعظ والتنبيه.

ثم إن الله عز وجل قال:" **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ** "، والمراد هو ما ذكره سبحانه في سورة القصص[78] من قوله:" **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** "[79]. وقد عبر الله عز وجل عما كان يعمل فرعون وقومه بقوله:" **يَصْنَعُ** "، وفي هذا بيان لحقيقة ما كان يعمل هؤلاء القوم، وأن سعيهم وأعمالهم المادية منها أو ما كان متعلقا بأحوال القلوب، كلها وإن كانت تأخذ صبغة الصنعة، أي الشئ المتقن المحبوك الذي يخلب الألباب

---

[74]– تأويلات أهل السنة، مرجع سابق، ج8، ص472.

[75]– سورة الملك، الآية 14.

[76]– القضاء والقدر، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد بن عبدالله آل عامر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، سنة1421هـ، ص222.

[77]– سورة الأعراف، الآية 137.

[78]– بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي، ص543.

[79]– سورة القصص، الآية 5.

ويطيش بالعقول، إلا أنها ليست في ميزان الشرع بشيء، وليست بمعجزة لله جلت قدرته وإن تعاظمت الصنعة.

والتحقيق أن يقال: أن قوله تعالى: " **يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ**"، ذلك يصدق على كفرهم الذي كانوا عليه، وقد وصفه الله بالصنعة؛ لأن فرعون أتقن الأمر بزعمه عندما ادعى الإلوهية لنفسه، وعندما استخف قومه ليطيعوه ويلهجوا بذكره إلها لهم. وهم قد سايروه وجرت عقيدتهم على وفق هواه؛ لا لأنه قد قدر على إقناعهم، وإلا لكان الأمر يستدعي أن يكونوا معذورين؛ لأن من قويت حجته وسلمت له من المعارض كان من البديهي أن يحج من حاجه، ويبز من نازعه، ويصرع من صارعه، ولم تكن حجة فرعون كذلك، إنما غاية الأمر أن قومه لما كانوا قوما فاسقين لزم منه أنه لما لوح لهم بالإلوهية مستخفا بهم، فما كان منهم إلا أن أطاعوه مظهرين أنه ظاهر فيما ادعاه.

وهذا المعنى الذي قررناه هو ما يستقيم مع عدله جل وعلا، من عذابه إياه وإياهم بالإغراق في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة[80]، وهو ما أثبته قوله تعالى:" **فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**"[81]، وقوله:" **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** "[82].

8-قوله تعالى:" **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ**"[83]، وقد كان قوم نوح يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الأمد، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من القرن الذي قبله، عندها شكا نوح ذلك إلى الله واستنصره عليهم، فأوحى الله إليه أن يصنع الفلك، وأوحى إليه ما يجعله يقطع الأمل في إيمان قومه إلا من آمن معه من قبل، وجعل نوح يصرف همه ووقته وجهده في صناعة السفينة. إلا أن قومه بادروه بالسخرية؛ لأنه يصنع سفينة في أبعد موضع عن الماء، وفي وقت قل الماء فيه واشتدت الحاجة إليه[84].

ومع ذلك أسلم نوح واستسلم لأمر ربه الذي أوحى إليه بصناعة السفينة، وهذا الوحي من الله بالصناعة يستنبط منه أمور: منها أن الله عز وجل هو الذي علم نوحا عليه السلام تلك الصنعة،

80- هذا ما عن لي في المسألة وأعوذ بالله من أن أكون قد قلت في كتاب الله برأي.

81- سورة الزخرف، الآية 55.

82- سورة غافر، الآية 46.

83- سورة هود، الآية 38.

84- جامع البيان، مرجع سابق، ج15، ص312.

وهذا ثابت بقوله تعالى في موضع آخر: " **صْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا** وَوَحْيِنَا "[85]، إذ المراد منه بمعيتنا وحفظنا[86].

ومنها أيضا: أن نوحا في صناعته للسفينة لن يعرض له في صفة صناعتها خطأ؛ لأن الموحي بذلك هو العليم الخبير.

هذا ما عن لي في المسألة، والله تعالى أعلى وأعلم.

الخاتمة:

بعد أن منَ الله العلي القدير عليَ بإتمام هذه الورقات، أذكر في ختامها هذه الأمور لتمام النفع.

- إن لفظة "**صنع**" ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها ما هو منسوب إلى الله عز وجل ومنها ما هو منسوب إلى البشر.

فإذا ما كانت منسوبة إلى ذاته المنزهة أفادت البديع من الشئ الذي لم يكن على مثال سابق، وأما نسبتها إلى البشر ففيه إفادة لإجادة الفعل وإتقانه من غير استئثار بذلك.

- لفظة "**صنع**" ومشتقاتها إذا أضيفت إلى صفة من صفات الخالق جل وعلا، فإنها تجر للحديث عن مسألة عقدية، وهي مسألة آيات الصفات أو متشابه الصفات، وللخروج من ذلك فإن الواجب على المرء المسلم أن يلتزم مذهب السلف في المسألة، الذي يقتضي تفويض العلم بكنه هذه الصفات إلى الواصف بها نفسه عز وجل من غير تعطيل، ولا تأويل، ولا تشبيه.
- "**صنع**" إذا أطلقت أفادت إجادة الفعل، وهي لا تنسب إلى الحيوانات ولا الجمادات، كما لا ينسب إليها الفعل، غير أن الملاحظ أن الله عز وجل عندما وصف في القرآن الكريم بعض أفعال غير المسلمين نعتها بالصنعة، ومع ذلك أبطلها ولم يرتب عليها أجرا رغم إتقانها، وفي هذا دلالة على أن حسن العمل وإتقانه من قبل القائم به لا يعني البتة صلاحه وترتيب الأجر والمثوبة عليه، ولعل هذا من أدل الدلائل على أن الحسن والقبح مردهما إلى الشرع لا الحس كما يذهب البعض.
- لفظة "**صنع**" وردت في القرآن الكريم مضافة إلى ذات الله عز وجل، وهي تفيد الإتقان لكل شيء، وفي هذا دلالة على أن كل قبيح من المعاصي والشرور وغيرها ليس من خلقه؛ لأنها أعراض، والإتقان لا يحصل إلا في المركبات ويمتنع وصف الأعراض به.

---

[85]– سورة هود، الآية 37.

[86]– تفسير المنار، مرجع سابق، ج12، ص62.

- ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم بأنه علَم داود عليه السلام صنعته، وهذا عمدة في الأخذ بالأسباب، وعليه فإن أهل العقول والألباب على القول بأن اتخاذ الصنائع والأسباب أمر واجب شرعا واقع فعلاً، فالسبب سنة الله في خلقه، فمن طعن في ذلك فقد افترى كذبا على القرآن والسنة.

ثبت المراجع:

– الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث، بيروت، ط1، سنة 2002م.

– معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، سنة1408هـ ، 1988.

– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، سنة1407هـ.

– تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، تحقيق د. مجدي با سلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، سنة1426هـ . 2005م.

– مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة، سنة 1420هـ.

– تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان الأزدي، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط الأولى، سنة1423هـ.

– مجاز القرآن، معمر بن المثنى التيمي أبو عبيدة، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، سنة1381هـ.

– تأويل غريب القرآن، محمد بن عبدالله بن مسلم أبو قتيبة، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ط سنة 1978م.

– جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبدالله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والتوزيع، ط1، سنة 2001م.

– مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

– الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ط سنة 1974م.

– البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، سنة 1957م.

– الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

– الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، إبراهيم اطفيس، دار الكتب المصرية.

– القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط8، سنة2005م.

– روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي، دار الفكر، بيروت.

– مسند أحمد، أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، سنة1421هـ.

– النكت والعيون، علي بن محمد بن محمد الماوردي، تحقيق السيد عبدالمقصود عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

– إصلاح المنطق، يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت، تحقيق محمد مرعي، دار إحياء التراث العربي، ط1، سنة2002م.

– التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط سنة 1984م.

– حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي، أحمد بن محمد بن عمر الحنفي، دار صادر، بيروت.

– تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، سنة1365هـ.

– المفيد في مهمات التوحيد، د.عبدالقادر بن محمد عطا صوفي، دار الإعلام، ط1،سنة1422هـ.

– عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، على أحمد عبدالعال الطهطاوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، سنة2004م.

– القضاء والقدر، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد بن عبدالله آل عامر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، سنة1421هـ.